

(النظرية النقدية في علم الاجتماع وتفسيراتها للاتصال الجماهيري)

أ/ صفاح أمال فاطمة الزهراء ، جامعة مستغانم

ملخص: سنتناول من خلال هذه المقال العلمية ، بدايات تأسيس نظريات و بحوث الاتصال و التي ظهرت بفعل مجموعة من العوامل التي أدت إلى بروزها إلى غاية بدايات القرن العشرين ، من بين أهم هذه العوامل ظهور وسائل الإعلام الكبرى بداية بوسيلة الطباعة التي ظهرت في القرن 15 في أوروبا ليلها ظهور الصحافة المكتوبة التي مارست تغييرات جذرية في الأنظمة السياسية في أوروبا من أبرز نماذجها ما حققته الثورة الفرنسية ، التي ساهمت في إسقاط النظام الديكتاتوري ، و حررت الطبقات الكادحة من الهيمنة الممارسة عليهم و ساهمت في تنوير الرأي العام ، إلى جانب الدور الفعال الذي مارسته الإذاعة و الفيلم السينمائي اللذان ساهما بشكل كبير في دعم الدعاية السياسية الممارسة من طرف أكبر القوى العسكرية أثناء الحرب العالمية الأولى و الثانية . إلى جانب تطور الجانب العلمي و الفكري الذي مثله الرواد الأوائل في علم الاجتماع من أبرزهم نذكر رواد المدرسة النقدية الذين انطلقوا ببحوثهم و نظرياتهم ، من مدرسة فرانكفورت الألمانية ، ليواصلوا تطبيق جهودهم الفكرية من خلال الجامعات الأمريكية التي التحقوا بها بفعل الهجرة التي عرفت أوروبا بفعل سيطرة الحزب النازي على الحكم في ألمانيا و دخول معظم الدول المجاورة في معترك الحرب العالمية الثانية ، فانتقل الفكر النقدي إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

كلمات مفتاحية: (النظرية النقدية ، علم الاجتماع ، الاتصال الجماهيري)

مقدمة:

يعتبر الاتصال من الظواهر التي عرفها الإنسان و مارسها منذ ظهوره ، حيث مارس الاتصال بوسائل بدائية في مراحل اكتشافه للطبيعة و مصارحته من أجل البقاء و تعزز السلوك الاتصالي للأفراد والجماعات من خلال اكتشاف اللغة و أبعديتها و التي عرفت تطورات في سياق الحضارات القديمة التي تأسست آنذاك نذكر منها الحضارة اليونانية و الرومانية و الفرعونية و البابلية التي ساهمت من خلال إنجازات عظيمة في مجال الفلسفة و البلاغة و ممارسة التجارة و حركية التنقل من منطقة إلى أخرى إلى ترقية الإنسان و تطوير نشاطاته ، إلى جانب تطور وسائل الاتصال و تنوع مواضيعه إلى أن الظاهرة الاتصالية و الإعلامية لم يتم تناولها تناولاً علمياً بمعزل عن العلوم الأخرى إلا في بدايات القرن العشرين أين سوف نجد إسهامات عدة حقول معرفية في دراسة الظواهر الاتصالية من بين أهم الحقول المعرفية التي ساهمت في تأسيس علوم الإعلام و الاتصال علم الاجتماع من خلال اتجاهين أساسيين هما:

الاتجاه الوظيفي المبرقي و الاتجاه النقدي ، حيث تفرعت من كل اتجاه مجموعة من النظريات التي اهتمت بدراسة جانب من جوانب الظاهرة الاتصالية . فكيف ساهمت النظرية النقدية في علم الاجتماع في بناء نظريات علوم الإعلام و الاتصال ؟ و من يمثل أهم رواد هذه المدرسة ؟ و ما هي أهم المفاهيم و التحليلات المقدمة فيما يتعلق بالظاهرة الاتصالية ؟ و بمضمون وسائل الإعلام والاتصال الجماهيري ؟

اهتم " دونيسماكويل " بالمنظور السوسيولوجي في دراسة الاتصال الجماهيري ، حيث أكد أهمية دراسة الاتصال الجماهيري من خلال منظورات متعددة : تحدث عن نظرية المجتمع الجماهيري و المنظور الماركسي و البنائية الوظيفية و النظريات النقدية ، و قام بتصنيف هذه الاتجاهات النظرية إلى ثلاث :

من بينها مدرسة فرانكفورت من خلال كتابات مبكرة ل: " هوركايمر " ، و " أدرنو " ، و " ماركيزو " و كذلك " هابرماس " الذي اهتم بتشكيل الاهتمامات العامة .¹⁰¹

ظهرت مدرسة فرانكفورت سنة 1923 تحت إسم : " معهد البحوث الاجتماعية " حيث تأثر روادها بمرجعين رئيسيين :

¹ طه عبد العاطي نجم ، الاتصال الجماهيري في المجتمع العربي الحديث (الموضوع و القضايا) ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2007 ، ص 56.

- "Histoire et conscience de classe" De « Lukacs

"Marsisime et philosophie"¹⁰².

حيث تأثر رواد هذه المدرسة في بداياتهم بالفكر الماركسي و منظور الصراع ، حيث ترجع الأصول الفلسفية للنظرية النقدية إلى الماركسية الكلاسيكية حيث يعتبرون أن الإعلام ، يعني وسائل إنتاج والتكيف مع نمط عام لشكل الصناعة الرأسمالية و ظروف الإنتاج و علاقاته.

و للنظريات النقدية مصدر آخر مختلف ، و هو النقد الإنساني للنصوص الأدبية و الدينية ، حيث تخصص الإنسان في تحليل النصوص المكتوبة منذ عصر النهضة.¹⁰³

و تعد المدرسة النقدية تيارا فكريا ، من أبرز رواده :

Herbert Marcuse, Walter Benjamin, Erik Fromm

اهتم رواد المدرسة النقدية في بداياتهم بدراسة حول " السلطة و الأسرة " سنة 1936 ، و حول قضية العداء ضد العرق السامي ، و الأنظمة الفاشية و النازية ، حيث قام " هوركايمر " بتقديم برنامج فلسفي وسياسي للمدرسة ، أين أوضح معالم المدرسة النقدية التي كان هدفها الرئيسي نقد أنظمة الحكم ، حيث جمعوا ما بين " الفلسفة المثالية " و " الفلسفة الوضعية " و ذلك ما تجلى من خلال مرجع " هوركايمر " بعنوان : سنة 1937

"Théorie traditionnelle et théorie critique"

ركزت المدرسة على دراسة المجتمع الرأسمالي و ظاهرة الهيمنة ، حيث كانوا متشائمين أمام قوة النظام الرأسمالي .

انضم سنة 1930 : "تيودور أدورنو" اتبع هذا الأخير نهج المدرسة و تجاوز مفهوم المادية التاريخية و

انتقل إلى مرحلة التفاؤل عكس النظرة التشاؤمية التي كانت سائدة من قبل .

انتقل أعضاء المدرسة سنة 1933 إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، بسبب صعود هتلر إلى الحكم في ألمانيا و هنا ظهرت عدة مؤلفات من أبرزها نذكر :

سنة 1941 "Raison et revolution" لماركيوز و La dialectique de la raison لهوركايمر سنة 1947

و لأدورنو سنة 1951 بعنوان : "Minima Moralia"¹⁰⁴

و يبدو إسهام أعضاء مدرسة فرانكفورت في دراسة الاتصال الجماهيري ، من خلال اهتمامهم بنقد وسائل الإعلام التي تحاول إعادة إنتاج ، الفنون العظيمة القديمة في أشكال ملخصة أو سلسلة ، تنقص من قيمتها ، و يرون أن مثل هذه العمليات صرفت الناس عن البحث و شراء المصادر الحقيقية للثقافة العالمية .

قام "تيودور أدورنو" بدعم من "بول لازار سفيلد" الذي أقنع مؤسسة الإعلام في كولومبيا ، بالقيام ببحوث ميدانية في شكل مشروع حول البحث عن الآثار الثقافية للبرامج الموسيقية التي كانت تبث على أمواج إذاعة أمريكية و هذه البحوث تعد من أولى البحوث التحليلية في مجال الاتصال ، حيث تأمل "بول لازار سفيلد" أن يحقق توافق ما بين النظرية الأوروبية و الإمبريقية الأمريكية ، لكن فشلت هذه الشراكة و انتهت سنة 1939 ، لتعارض الأفكار و الأهداف و ذلك أيضا لأن "أدورنو" رفض أن يعمل في إطار الدراسات الإدارية و رأى أنه يجب طرح مجموعة من التساؤلات :

كيف؟، لماذا؟، من؟، متى؟، كما أن "هوركايمر" اتفق مع "أدورنو" و عارضوا الدراسات الإمبريقية التي اعتبروها دراسات جافة.¹⁰⁵ تطرق رواد مدرسة فرانكفورت إلى تحليل المضامين الثقافية ، حيث تطرقوا إلى موضوع : الصناعة الثقافية ذات البعد الواحد حيث أصبحت المسألة الرئيسية هي دمج الأفراد دمجاً ناجحاً ، و يقصدون بالثقافة السبل التي تتبعها المجتمعات و الأفراد لوضع تصور عن العالم ، و هي العامل الوحيد لتحقيق هذا الاندماج ، و أبرز مناقشة قدمها "هربرت ماركيوز" في مؤلفه " الإنسان ذو البعد

¹⁰²Madleine Grawitz ,la methode des sciences sociales ,p 130.

طه عبد العاطي نجم ، مرجع سابق ، ص 75.¹⁰³

¹⁰⁴Madeleine Grawitz, ibid, p 131.

¹⁰⁵Armand et Michele Mattelart, Histoire des theories de la communication, Casbah editions , Alger , 1999, p p 40,41.

الواحد" 1964، و تحليل آخر قدمه "أدورنو" يسميه الصناعة الثقافية ، في كتابه : "جدل التنوير" 1972، حيث أنتج هذا الأخير كم هائل من الأعمال في الأدب و الموسيقى و الثقافة الشعبية ، و يشمل تحليل كل صور الثقافة و أشكالها الموجهة لجميع الطبقات الاجتماعية ، حيث يسلم بأن الأفراد لديهم قدرات و إمكانيات معينة سلبت منهم في المجتمع الحديث.¹⁰⁶ من خلال تحليل البرامج الموسيقية التي كانت تبث عبر الإذاعات الأمريكية ، توصل باحثوا هذه المدرسة أن الكيان الموسيقي المقدم يوميا متدني ، بمعنى فن تابع للنظام حيث حللوا فن "الجاز" توصلوا إلى أنه فن يهدف إلى دمج الفرد و تحقيق تبعيته . كما تطرقوا إلى مفهوم "العقل الأداتي" :الذين ينقدون من خلاله الثقافة السائدة و حاولوا الكشف عن الأشكال الجديدة للتعبية السياسية المخفية تحت غطاء العقلانية ، في مجتمع أوحادي البعد ، ألغى جميع محاولات النقد من خلال مضامين وسائل الإعلام، التي تضمن مجموع خدمات نمطية ، لسد حاجات متعددة و بالتالي نتجت : ثقافة جماهيرية متضمنة مجموع عناصر صناعية ، متشابهة تتميز بالنمطية ، تقسيم العمل التسلسل ، و هذا بفعل عوامل التطور التكنولوجي و الاقتصادي و العقلانية التقنية التي تحقق خاصية القهر على المجتمع .

الصناعة الثقافية تؤثر بشكل كبير على الثقافة ، و ذلك من خلال القضاء على القيم الروحية و ظهور القيم الفورية و الخلط بين التقنية و الفن ، أوضحوا أن السينما كفن أصبحت تخضع للصناعة و إعادة الصناعة و مع تطور المجتمعات الشمولية الحديثة ، أخذ الفن يفقد وظيفته ، حيث يتحدث "ماركيوز" عن الطريقة التي تنتج بها صناعة الثقافة حاجات زائفة.¹⁰⁷ يرى أعضاء مدرسة فرانكفورت إلى الإعلام ، أنه ممارسة تتبع أيديولوجيا معينة ، و انبثق عن الاتجاه النقدي : نظرية تحليل الثقافة من خلال تحليل نمط استخدام الأفراد للوسائل الإعلامية و الكشف عن النتائج المترتبة عن استخدامها في الحياة اليومية.¹⁰⁸ و يعتبر وريث التيار النقدي الفيلسوف الألماني : "يورغن هابرماس" من المحدثين للنظرية النقدية حيث طور نظريته حول العقلانية و التقنية ، و اهتم بدراسة الفضاء العمومي و ظاهرة التلاعب بالرأي العام من خلال جمهرة المجتمع حيث أصبح المواطن : مجرد مستهلك للسلوك الجماهيري ن الناتج عن الاتصال الجماهيري ، و حلل عملية التلقي المنفرد ، و الحركات الصراعية ، في العواصم الغربية و ذلك ما برز من خلال نظرية الفعل الاتصالي ، حيث دافع عن نموذج مثالي للاتصال.¹⁰⁹ و يقدم رواد المدرسة النقدية تحليلا حول طبيعة المضامين الهابطة التي هي عبارة عن محتويات إعلامية يتم توزيعها على نطاق واسع و تشاهده جماهير عريضة و يكون مثيرا لاستياء النقاد بشكل مستمر مثل : برامج : العنف و الجنس التي تصل إلى مستوى الدعارة و التي تساهم في خفض مستوى الذوق و إفساد الأخلاق و القيم.¹¹⁰ أقام رواد هذه المدرسة جدلا كبيرا حول الثقافة الجماهيرية ، التي أصبحت تعرض في شكل مبسط و تملأ أوقات فراغ الجماهير العريضة و تعود للمؤسسات الإعلامية بالبرج الوفير ، دون مراعاة القيم ، حيث تدفع للجماهير دون تفكير ، و تقدم صورا جاهزة نمطية ، لا تنمي المدركات ، لأن الجمهور يستجيب لمضامينها دون نقد أو تساؤلات ، و قامت الثقافة الجماهيرية بتحطيم العادات و التقاليد لأنها من صنع تجار يهدفون إلى تحقيق الربح المادي ، دون مراعاة المستويات الفنية و الفكرية ، دون الأخذ بعين الاعتبار الآثار السلبية على جمهور المتلقين ، حيث أصبح الاتصال الجماهيري يهدد استقلالية الأفراد و يكرس هروب الأفراد من الواقع الذي يعيشونه بما في ذلك الصفوة المثقفة .

و يعتبرون أن الصور السينمائية و التلفزيونية ، تعند إلى إنتاج صور نمطية عن الواقع الذي يعيشه الأفراد رغم اختلاف مجتمعاتهم و خلفياتهم العقائدية إلا أن الاعلام ، من خلال الصناعات الثقافية التي أصبح يعما على إنتاجها يسعى إلى الهيمنة على جميع الثقافات و ذلك بغرض تحقيق أهداف بعيدة المدى و خدمة السياسة العالمية السائدة التي تمثلها كبرى الشركات العالمية

إيان كريب ، النظرية الاجتماعية من يارسونز إلى هابرماس ، تر: محمد حسين غلوم ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأداب ، الكويت ، أبريل ، 1999 ، ص 322 ،¹⁰⁶
المرجع السابق ، ص ص 325 ، 326 .

107

فضيل دليو ، الاتصال : مفاهيمه ، نظرياته ، وسائله ، دار الفجر للنشر و التوزيع ، القاهرة ، ط 2003 ، ص 77.¹⁰⁸

109 Armand et Michele Mttelart , Ibid , p 47, 48.

بلقاسم بن روان ، وسائل الاعلام و المجتمع (دراسة في الأبعاد الاجتماعية و المؤسساتية) ، دار الخلدونية ، الجزائر ، ط 1 ، ص 102.¹¹⁰

التي استطاعت أن تستثمر في مجال الإبداع الفني و الاتصالي من خلال تفعيل دور الرسائل الاشهارية و ترسيخها في أذهان و سلوكات المتلقين .

و ذلك بتجاهل ثقافة الصفوة : و هي الثقافة التي تبدها الموهبة الخلاقة لرواد الفكر و الأدب و الفنون و تتميز هذه الثقافة بجديتها و أصالتها و مراعاتها للتقاليد الجمالية و خضوعها لقوانين النقد و أصوله .

حيث يعتبر منتجو هذه الثقافة مفكرين طليعيين يرتكزون على أسس و نظريات لا تتأثر بأراء زائفة و مواقف ضعيفة .¹¹¹ ساهمت النظرية النقدية انطلاقا من البدايات الأولى التي انطلقت من مدينة فرانكفورت الألمانية إلى تقديم طرح سوسيولوجي للظواهر و الإشكاليات السائدة آنذاك بالاعتماد على خلفية فكرية فلسفية لكارل ماركس

معتمدين على الأسلوب النقدي في تحليل الظواهر الاتصالية التي بدأت تبرز من خلال تطور وسائل الاتصال و علاقة الحاكم بالمحكوم ، و السياسات التي تسعى إل الهيمنة على الجماهير و سرعان ما تدعمت أعمال المدرسة النقدية ، بالجانب الامبريقي للمدرسة الوظيفية ليقوموا بتطور النظرية النقدية في مجال الاعلام و تحليل مضامين الاتصال الجماهيري مرتكزين عل تقديم تحليلات حول قيمة الثقافة التي أصبحت تقدمها هذه الوسائل و التي أصبحت تخاطب كم هائلا من الجماهير ، متحملين بذلك مسؤولية الخطاب الموجه لمختلف الطبقات الاجتماعية ، حيث لم تعد تحترم الفروقات الفردية و الاجتماعية و تسعى إلى تحقيق الهيمنة بطرق غير مباشرة من خلال تزييف الحقائق و التلاعب بالعقول و توصل الاتجاه النقدي إلى إعطاء منهجية علمية جديدة في علوم الإعلام و الاتصال تسعى بتحليل المضمون و التحليل السيميائي لجميع الأشكال الاتصالية و تقديم نقد علمي و بناء لمختلف الصناعات الإعلامية الموجهة للجماهير و ساعد ذلك في ظهور نظريات حديثة من بينها نظرية : الاقتصاد السياسي ، نظرية الدراسات الثقافية ، نظريات الفضاء العمومي ، نظريات التأطير الاعلامي .

قائمة المراجع المعتمدة:

1-الكتب باللغة العربية :

- 1-طه عبد العاطي نجم ، الاتصال الجماهيري في المجتمع العربي الحديث (الموضوع والقضايا) ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2007.
- 2-فضيل دليو ، الاتصال : مفاهيمه ، نظرياته ، وسائله ، دار الفجر للنشر و التوزيع ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 2003.
- 3-عصام سليمان الموسى ، تطوير الثقافة الجماهيرية العربية ، مركز الإمارات للدراسات و البحوث ، العدد 68 ، أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة ، الطبعة الأولى ، 2002.
- 4-بلقاسم بن روان ، وسائل الاعلام و المجتمع (دراسة في الأبعاد الاجتماعية و المؤسساتية) ، دار الخلدونية ، الجزائر ، الطبعة الأولى ، 2007.
- 5-إيان كريب ، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس ، ترجمة : محمد حسين غلوم ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، أبريل ، 1999.

2-الكتب باللغة الفرنسية :

- 1-Armand et Michele Mattelart , Histoire des theories de la communication , Casbah editions , Alger , 1999.
- 2-Madeleine Grawitz , La methode des sciences sociales , edition Dalloz , paris , 2000.

¹ عصام سليمان الموسى ، تطوير الثقافة الجماهيرية العربية ، مركز الإمارات للدراسات و البحوث الاستراتيجية ، العدد 68 ، أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة ، ط 2002 ، ص 1 ، ص 31.